كوندياك وديدرو

وأثرهما في فن التربية[1]

لحسن كامل

﴿فلاسفة القرن الثامن عشر﴾ تقدم فن التربية في القرن الثامن عشر تقدماً كبيراً. ويرجع أغلب الفضل في ذلك الى مجهودات فلاسفة هذا القرن. ويلاحظ الباحث ان التربية لم تبق بعد القرن السابع عشر موضع اهتمام رجال التعليم فحسب بل اصبحت الشغل الشاغل لكبار المفكرين الذين أخذوا في دراسة مسائلها الحويصة. وتوسع بعضهم في هذه الدراسة حتى وصل الى حد التعمق. ويكفي ان نعرف أنهم تناقشوا كل ما عرض له روسو من مسائل التربية لكي يتبين لنا أنهم لم يتركوا ناحية من نواحيها الهامة الاّ ودرسوها دراسة وافية. ونرى أن هذه الدراسات — على الرغم مما فيها من اخطاء — قد اظهرت للناس حقائق كانوا يجهلونها حتى ذلك العهد

كوندياك

﴿كوندياك (١٧١٥ — ١٧٨٠)﴾ كان كوندياك عالماً نفسانيًّا ماهراً نافس لوك الانكليزي في ميدان الفلسفة. ولكنهُ لم يصل الى ما وصل اليهِ هذا الاخير من المنزلة في عالم التربية. ومع ذلك فان لهُ كتاباً نفيساً عنوانه دراسات Cours d'études يحتوي على ثلاثة عشر مجلداً جمع بين دفتيه دروسه في تربية تلميذه فرديناند حفيد لويس الخامس عشر

﴿تغلب روحه الفلسفية﴾ من الخير أن نسود روح الفلسفة نظريات فن التربية. ولو كان كوندياك قد اقتصر على تطبيق الرأي القائل بان فن التربية هو مجموعة قواعد مستنتجة من علم النفس لتجنب ما وجه اليهِ من نقد مرّ. ولكنهُ راح يحشر في التربية مبادىء فلسفية بحتة لا تتفق — على الرغم من صحتها النظرية — مع فن تربية الرجال فيقول مثلاً « ان طريقتي في التربية

---

(١) الجانب الاول من فصل في « فلاسفة القرن الثامن عشر وأثرهم في تطور فن التربية » لحسن كامل مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة التربية الثانوية الاميرية. والجانب الثاني يشتمل على بحث في هلفيتيوس وكنت

لا تشبه في شيء اساليب التعليم المتبعة . ولكنها تتلخص في ضرورة أن يمر الطفل بما مرّ به العلماء ورجال الفن ». وبمعنى آخر يجب أن يلاقي الطفل ما لاقاه التقدم الانساني من بطء وتخبط وان يفعل ما فعلتهُ الشعوب من قبل !..

ولا ريب في أن ثمة قسطاً من الصحة في خطإ كوندياك . فالعلوم والفنون بدأت بملاحظات خاصة . ثم ارتقت بعد ذلك الى مستوى المبادىء العامة . ولسنا نعارض في ضرورة انتهاج هذه الخطة بنفسها في التربية . فمن الخير أن نبدأ بان نقدم للطفل وقائع خاصة ثم نقوده — خطوة خطوة من ملاحظة الى اخرى — الى القانون الذي يهيمن على هذه الوقائع ويلخصها. ولكن هناك بون شاسع بين طريقة الاستنباط التجريبية هذه وبين مبالغات كوندياك. فليس من المعقول بتاتاً أن نلغي تماماً طريقة العرض التركيبية (la méthode synthétique d'exposition) تلك الطريقة التي تتلخص في ضرورة الاستفادة من تجارب القرون الغابرة لتعليم الحقائق الثابتة مرة واحدة ومن الخرق أن نحاول إرغام الطفل على أن يبدأ بفرده عمل القرون مرة ثانية

وأعجب من هذا أن هواجس كوندياك الفلسفية جعلتهُ يتوهم إمكان اعداد الطفل للتحليل النفساني منذ يده دراسته فهو يقول : « يجب أن يعرف الطفل منذ البدء ما له من مواهب.. وأن تشعره بالحاجة الى إستخدامها » أي ان أول ما يجب أن يفكر فيه الطفل هو التحليل النفسي ومعنى هذا أن كوندياك لا يريدنا أن نعمل على ان يكون الطفل يقظاً بل يريد أن نبدأ بافهامه ما هي اليقظة !

والخطأ في هذا ظاهر . اذ كيف نفكر في أن نجعل من الطفل عالماً نفسانيًّا صغيراً وان تكون دراسة علم النفس الخطوة الاولى في التربية . أن هذا العلم «هو اكثر العلوم دقة وأصلحها لختام مختلف الدراسات وتتويجها » ؟...

﴿ ضرورة التباحث مع الطفل ﴾ كان روسو قد انتقد فكرة لوك في وجوب « أن نتباحث مع الطفل وان نعمل على أن يستخدم عقله » . فاراد كوندياك أن يرفع من شأن هذه الفكرة ويعيد ثقة الناس بصحتها فقال . « اني اعتقد أن ملكة استخدام العقل تنمو بنمو الحواس. وعلى ذلك فكما أننا نستطيع أن نستخدم حواسنا منذ الطفولة فاننا نستطيع استخدام عقولنا ايضاً منذ هذه السن »

وأساس خطإ كوندياك في هذه الفكرة أنهُ لا يعترف للملكات الفكرية بطابع خاص بل يقول بان مصدرها جميعاً الحواس . وعلى ذلك فهو لا يفرق بين الاحساس المجرد وبين عملية استخدام العقل . وليس هناك بين المفكرين من وافق كوندياك على قوله « بان موهبة الطفل في الفهم لا تقل عن موهبة الرجل الكامل » وكل ما هنالك أن للطفل منطقاً غريزيًّا يساعده على إمكان البدء في استعمال عقله . ولكن هذا الاستعمال الطفلي لا يمكن أن يطبق الاّ على ما ألفهُ الطفل من

الاشياء المحسوسة الملموسة . ومن الخطأ ان نحاول توجيهه الى إستخدام عقله في تميز الاشياء العامة المجردة أو الحكم عليها

﴿ دروس مبدئية ﴾ ونحن نلخص هنا التعاليم الاولى التي يعطيها كوندياك لتلميذه تحت عنوان « دروس مبدئية » وعناصرها هي : ١ : طبيعة الافكار : ٢ : عمليات النفس : ٣ : العادات : ٤ : التميز بين الروح والجسد : ٥ معرفة الاله

يعجب كل رجال التربية كيف فكر كوندياك في وضع هذه النظريات الفلسفية العالية في متناول طفل في السابعة من عمره لما يدرس بعد قواعد النحو والصرف في لغته ! .. ومهما اكد لنا كوندياك صحة رأيه فليس من شك في ان خير ما يعرض على الطفل في هذه السن هو بعض الطرائف النافعة وبعض الاقاصيص التاريخية اذا امكن . ويدعي كوندياك انهُ بعد ان علم تلميذه كيف يدرس الطفولة ويفكر في خواصها وجد انها قد تكون أسهل ما يمكن ان يدرسه الطفل من الموضوعات واكثرها اثارة لحب الاستطلاع عنده ! ! . . .

﴿ فن التفكير ﴾ فاذا فضح عقل الطفل بفضل ما درسهُ من تحليل نفساني وآراء عامة في التقدم البشري أصبح في نظر كوندياك صالحاً لان يدخل مدرسة عادية يسير فيها بحسب نظام الدراسة العادي. وهنا نجد لكوندياك بعض الآراء المقبولة . فقد كتب يقول مثلاً : «ان دراسة قواعد النحو والصرف مجهدة اكثر منها نافعة اذا لقنت للطفل منذ لعومة أظفاره » . ولعلَّ من أغرب الغرائب أن يكون هذا هو رأي كوندياك في قواعد النحو والصرف وهو الذي يعتقد ان دراسة نظريات علم النفس في متناول الاطفال ! . . .

ويريد كوندياك ان يبدأ تلميذه بقراءة الشعر (الفرنسي طبعاً) ويفضل المؤلفين المسرحيين وخصوصاً راسين ويقول في ذلك « ان على الطفل أن يجيد معرفة اللغة اولاً ولا بأس من أن يدرس القواعد المجردة بعد ذلك » . وقد كتب كوندياك نفسه مؤلفاً في قواعد النحو والصرف عنوانه « فن الكلام » . ونصح تلميذه بقراءة ثلاثة من كتبه الاخرى وهي « فن الكتابة او البلاغة » و« فن استخدام العقل او المنطق » وأخيراً « فن التفكير » . وقد اصبحت هذه المؤلفات قديمة على الرغم من ان فيها فصولاً ممتعة للغاية وقد عني كوندياك في كتابها بتنسيق الافكار اكثر من عنايته بتنسيق الاسلوب

﴿ اجزاء اخرى من كتاب « دراسات » ﴾ . يظهر ان غرض كوندياك الوحيد هو ان يجعل من تلميذه رجلاً مفكراً . وعلى ذلك فهو لا يريد أن يبدأ تلميذه دراسة اللغة اللاتينية الاَّ بعد ان يتكوَّن ذكاؤه بحيث لا يجد في هذه الدراسة الاَّ صعوبة واحدة هي صعوبة حفظ الكلمات . وكوندياك لا يستسيغ كثيراً اللغات القديمة . ولا يرى ان لمرتها شأناً جوهريًّا .

وهو يريد استبعاد اللغة اليونانية تماماً . ولكنه يعلّق شأناً عظيماً على الدراسات التاريخية ويقول في هذا الصدد عن تلميذه حفيد لويس الخامس عشر : « بعد ان عرف الامير كيف يفكر اصبح غرضه الاساسي الالمام بالتاريخ »

﴿ التفكير الشخصي ﴾ عرف كوندياك مكانة التفكير الشخصي ومقامهُ. فوضع كفاءة الحكم على الامور فوق قوة الذاكرة . وقد يكون فيما سنذكره من كلام كوندياك ما يرفع من قيمته كمربٍّ بعد ما وجهناهُ اليه من نقد كثير

يقول كوندياك : قد يكون للتربية التي يقصد بها تثقيف الذاكرة نتائج باهرة . ولكن هذه النتائج لا تدوم الاّ مدة الطفولة . وكل من لم يحفظ الاّ عن ظهر قلب جاهل . ومن لم يتعلم كيف يفكر لا يعد متعلماً او هو نصف متعلم وهذا اقبح بكثير » . ويقول ايضاً : « لا تكون المعلومات نافعة الاّ اذا كانت ثمرة من ثمرات التفكير . ونحن نعرف الاشياء التي نستطيع ان نذكرها عند الحاجة معرفة اتمّ من تلك التي لا نستطيع ان نذكرها اذا اردنا . وعلى ذلك فلا يكفي ان نزوّد الطفل بالمعلومات بل يجب ان نتركه يبحث وينقب بنفسه ليعلّم نفسه بنفسه . وان مسئلة ارشاد الطفل لهي اهم المسائل . فاذا كان ارشادنا له منتظماً تكوّنت عنده آراء صحيحة وتمكن من فهم نتائجها وعلاقة بعضها ببعض »

ويخرج كوندياك من كل ذلك بأن تربية الرجل نفسهُ بنفسه افضل كثيراً من تربية الغير له

﴿ نقده للاسراف في التعبد ﴾ وقد كتب كوندياك صفحات رائعة ضمنها نصائحه لتلميذه الامير محذراً اياه من الاسراف في التعبد . ونحن نكتفي بأن نذكر منها هذه الكلمات : « مولاي حذار من الاسراف في التعبد . فان من شأن التدين الاعمى ان يصرفك عما يجب عليك القيام به من الفروض الدينية . واياك ان تصلي دائماً لمجرد ان الصلاة واجبة . واعلم ان القساوسة سيمتدحون ترددك على الكنائس لتنتهي بأن تحل محلهم ويحلّوا محلك »

ديدرو

﴿ ديدرو (١٧١٣—١٧٨٤) ﴾ مؤلفات ديدرو خيالية اباحية في بعض الاحيان . وقد يدهش من لم يقرأ له الاّ هذا النوع من المؤلفات ان يرى اسمه بين اسماء المربين . ولكن هذه الدهشة لا تلبث ان تزول اذا ذكرنا ان ديدرو كان كثير التنقل في ابحاثه يحب ان يجدد مواضيعها . فبينما نجد له دراسات دسمة مجهدة . نجد له ايضاً دراسات اخرى سهلة مسلية

﴿ مؤلفاته في التربية ﴾ وعلى اي حال فليس هناك محل للريب . فقد اهتمّ ديدرو بمسائل التربية فعلاً ووضع كتابين فيها اولهما في عام ١٧٦٣ وعنوانه « تفنيد كتاب هلفيتيوس عن

الانسان » وثانيهما في عام ١٧٦٦ وعنوانه « برنامج الجامعة » وهو الكتاب الذي وضعه تلبية لطلب كاترين الثانية وضمنه برنامجاً كاملاً للتعليم

﴿ صفاته كمربٍّ ﴾ لم يكن لديدرو الشخصية الطبيعية التي تسمح له بأن يكون مربياً كاملاً ولكن رجاحة عقله وميزاته الاخرى الطبيعي منها والمكتسب جعلته محلاً لثقة كاترين الثانية تلك الثقة التي ظهرت في تكليفه وضع برنامج لتنظيم تعليم الشعب الروسي

وديدرو الى جانب ذلك مفكر عالم متمكن في شتى العلوم . وقد عرف بشغفه العظيم بالآداب وظهر هذا الشغف في اشتراكه في اعمال « الموسوعة » الفرنسية . كما انه كان شديد التعلق بشكسبير وبالنظم الحديث ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الميل الى الآداب القديمة النموذجية حتى لقد قيل ان قراءة اغاني هوميروس كانت في نظره كترتيل الصلوات في نظر القساوسة

﴿ ضرورة التعليم ﴾ ويمتاز ديدرو عن معظم معاصريه وعن روسو نفسه بعقيدته الراسخة في اثر التعليم من الوجهة الخلقية فهو يقول : « ان التعليم يرقق الاخلاق ويساعد الانسان على فهم واجبه فهماً صحيحاً . وهو يقضي على الرذائل او يخففها » . ويستنتج ديدرو من ذلك ان التعليم ضروري للجميع لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير . ونادى ديدرو بضرورة فتح ابواب المدارس لجميع الاطفال على ان يتعلموا فيها القراءة والكتابة والحساب وتعاليم الدين المتعلقة بالاخلاق والسياسة بل انه طالب بأن يكون التعليم اجبارياً ومجانياً بحيث « يجد الطفل في مدرسته خبزاً لتغذيته بجانب ما يجده من كتب لتعليمه »

﴿ فكرة التعليم العام ﴾ وكان رأي ديدرو ان يعهد للدولة في ادارة شؤون التعليم . ويقول ان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يصبح بها نظام التعليم مستنداً الى اساس قوي متين . وكان مثله الاعلى ان يترأس الجامعة رجل من رجال الدولة يعهد اليه في شؤون التعليم العام بأسرها على ان يهيمن بنفسه على الامتحانات ويعين نظار المدارس ويفصل الطلبة والاساتذة والمدرسين

﴿ نقد معاهد العلم الفرنسية ﴾ وكانت المدارس الثانوية تسمى اذ ذاك كليات الفنون . وقد وجه ديدرو اكبر قسط من اهتمامه الى نقد الطرق المتبعة فيها . واليك شيئاً من هذا النقد : « لا يزال رجال التعليم يدرسون في كلية الفنون ما يسمونه الآداب الجميلة ويقصد بهذه الآداب اللغتين الميتتين لا ينتفع بدراستهما الا عدد قليل من الافراد . والاغرب من هذا أنهما تدرَّسان ستة أو سبعة أعوام من دون أن يصل الطالب إلى اتقان إحداهما . ويدرسون أيضاً البلاغة وهي فن الكلام قبل تدريس فن التفكير أي أنهم يحاولون تعليم التلاميذ طرق تنسيق العبارة قبل أن يفكروا في تزويدهم بالآراء الصحيحة . ولا يزالون يدرسون المنطق ويرغمون الطلبة على أن يحشوا رؤوسهم بدقائق فن أرسطو ونظريته في الاستنتاج التي لا فائدة منها بتاتاً . ولا يزالون يدرسون

الاخلاق . ولا أعرف بالضبط ما يقولونهُ للطلبة عنها . ولكني أعرف أنهم لا يقولون كلمة واحدة عن ملكات القلب والعقل وصفاتهما . ويدرسون أيضاً ما يسمونهُ علم ما وراء الطبيعة فيثيرون بذلك في رؤوس الطلبة مسائل تحوطها الاشواك ولا تؤدي دراستها إلاَّ إلى التشكك والتعصب . ويدرسون علم الطبيعة فيمزون جهودهم في مناقشات عن المادة . يدرسون كل ذلك ولكنهم لا يقولون كلمة عن التاريخ الطبيعي ولا عن الكيمياء ولا يذكرون إلاَّ بضع كلمات عن علم وظائف الاعضاء وتجارب الاجيال السالفة والجغرافيا

***

﴿ الاصلاحات التي يقترحها ديدرو ﴾ وبعد أن وجه ديدرو كل هذه الانتقادات الى التعليم في أيامه أخذ يشرح مايقترحه هو من اصلاحات . فجاء بعضها معقولاً والبعض الآخر خاطئاً

كان لديدرو رأي — أخذه عنهُ فيما بعد أوجست كونت والمدرسة الواقعية — وهو أنهُ يجب أن تربط العلوم وترتبها بحيث يكون كل علم قائماً على أساس ما سبقه من العلوم ويسهل في الوقت نفسه دراسة العلم الذي يعقبه على أن يكون رائدنا في هذا الترتيب فائدة كل علم بالقياس الى الآخر . ولقد وزع ديدرو الدراسات المدرسية على أساس هذه الفكرة وهو يقول أن ترتيب العلوم من وجهة التربية يختلف عن ترتيبها المنطقي . وذلك لان الاتصال الطبيعي لكل من العلوم بالعلوم الاخرى يعين له مكاناً خاصاً يختلف عن المكان الذي يجب أن يشغله للفائدة التعليمية التي تعود من وجوده في هذا المكان

ولكن ديدرو ينسى أنهُ في توزيع الدراسات لا يجب الأخذ بمبدأ الفائدة التعليمية فحسب بل المهم أن ترتب العلوم بحيث تتفق وتقدم سن الطفل ونمو استعداده الذهني

﴿ تفضيل ديدرو للعلوم ﴾ وعلى الرغم من أن شغف ديدرو بالعلوم لم يكن اكبر من شغفه بالآداب الاَّ أنهُ لم يعط للتربية الأدبية ما أعطاه للتربية العلمية من الشأن . وقد أخذ بهذا المبدأ بعده كوندورسيه وأوجست كونت . وديدرو يفضل العلوم الى حد أنه يخصص الخمسة الاعوام الاولى للدراسة في كلية الفنون لتعلم الرياضيات والميكانيا وعلم الفلك والطبيعة والكيمياء . ويترك ثلاثة الاعوام الباقية لدراسة النحو والصرف واللغات القديمة

ويقول أحد علماء التربية أن خطأ ديدرو في هذا الرأي لا يقتصر على أنه غض كثيراً من قدر الآداب وانتقص من قيمتها بل انهُ وزع الدراسات العلمية نفسها توزيعاً خاطئاً فوضع الرياضيات قبل الطبيعة واعتبر دراسة الحيز اسهل من تعلم القراءة . وانه من الخطل ان نجهد انتباه الطفل بارغامه على دراسة مسائل عديدة مبهمة مجردة تاركين بذلك حواسه من دون عمل . وأن نرجىء الى ما بعد ذلك دراسة التاريخ الطبيعي والطبيعة العملية وهي الدراسات التي توافق

الاطفال باعتراف ديدرو نفسه فهو يقول عنها أنها تمرين مستمر لحواس النظر والشم والذوق كما أنها تمرين نافع للذاكرة

ولا يكفي لاعتبار خطأ ديدرو أن نعرف أنه يتكلم عن طلبة كلية الفنون وهم طلبة في سن الثانية عشر إذ أنه لا ريب في أن عقل الطالب في هذه السن ليس من التضوج بحيث يستطيع أن يتصرف تماماً ستة أعوام أو سبعة لدراسة استنتاجات العلوم الرياضية الباردة

﴿ رأيه في ماهية الآداب ﴾ وموقف ديدرو من الآداب القديمة مدعش حقاً فيما نراه يرجىء دراسة هذه الآداب إلى سن التاسعة عشرة او العشرين ولا يخصص لها في هذه السن إلا عاماً واحداً نجده يتكلم عن القدماء وخاصة عن هوميروس في حماسة شديدة غريبة فيقول مثلاً « ان هوميروس استاذ عظيم أدين له بكل ما لي من قيمة ان كان لي قيمة . وان دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية هي السبيل الى اكتساب سلامة الذوق »

فكيف نفسر هذا التناقض الغريب في موقف ديدرو ؟ هناك من المؤلفين من يقول بأن ديدرو كان يعتقد ان الآداب الجميلة لا تصلح الا لتكوين الخطباء والشعراء وانها لا تصلح لانماء ملكات الفكر . ولما كانت هذه الدراسات نوعاً من الزخرف فهي لا توافق الا اقلية صغيرة من الطلاب ولا يمكن لهذا السبب أن تسبق دراسات الفرض منها التربية العامة للناس جميعاً ويقول آخرون ان ديدرو كان يجهل ان هاتين اللغتين اداة عجيبة للتمرين العقلي وانهما اضمن الوسائل واكثرها سهولة لاكتساب صفات الدقة والوضوح وصحة الحكم وهي صفات لازمة لكل اعمال الحياة

***

﴿ رأي مارمونتيل ﴾ ويظهر ان ديدرو كان يعتقد أن دراسة اللغات هي مجرد استذكار مجموعة من الكلمات وانها لذلك لا تصلح الا لتمرين الذاكرة وتقويتها ولكن مارمونتيل وهو أحد معاصري ديدرو الذين لم يصلوا الى مرتبته في النبوغ وجه الى رأيه هذا نقداً مراً وكان اصوب منه في الحكم على فائدة دراسة اللغات عند الصغر . فقد قال :

ان عملية انتقاء الكلمات واستعمالها ، تلك العملية التي نقوم بها اثناء النقل من لغة الى أخرى ليست تمريناً مفيداً للذاكرة فحسب وإنما هي عملية تقتضي تحليل الافكار . وان دراسة اللغات هي دراسة لفن تمييز الفروق الدقيقة بين الافكار ومجزئة هذه الافكار لفهم دقائقها والعلاقة بينها وان حفظ كلمات جديدة من لغة أجنبية ليصحبه دائماً اكتساب آراء جديدة ولذلك فاني اعتقد أن تلاميذ السنين الاولى الذين يدرسون اللغتين اليونانية واللاتينية يتعلمون في نفس الوقت مبادىء في الفلسفة أعظم ثروة واكثر اتساعاً وفائدة مما يتصوره الانسان